مشروع بيجوفيتش
لنهضة المجتمع المسلم

بقلم محمد يوسف عدس

دعيت للمساهمة فى مؤتمر عقدته مكتبة الإسكندرية بين ١٩و ٢١ من يناير الماضى موضوعه: (إتجاهات التجديد والإصلاح فى الفكر الإسلامي الحديث) .. وأعترف أن أحد العوامل التى حفزتنى على الترحيب بالدعوة و الحضور إلى هذا المؤتمر ليس أهمية الموضوع فحسب وإنما أيضا رغبة قوية لاكتشاف قدرة مكتبة الإسكندرية على إدارة مؤتمر عالمي حاشد من المفكرين والأكاديميين الكبار جاؤوا إليه من مختلف أنحاء العالم العربي والإسلامي ، واستمر لمدة ثلاثة أيام متواصلة .. (فى كل يوم ثلاثة جلسات قُدّمت فيها ونوقشت خمسة عشر بحثا) .. كان اليوم يبدأ من الساعة التاسعة صباحا وينتهى فى الخامسة مساء، حيث تبدأ رحلة العودة إلى الفندق .. وأشهد أن المستوى التنظيمي لهذه المهمة الكبيرة المعقدة، مع هذه الساعات الطويلة، لم يكن ليقلّ عن أى مستوى تنظيمى عرفته فى مؤتمرات عُقدت بأوربا أو أستراليا .. ويرجع الفضل فى هذا إلى إدارة المكتبة ، وإلى شخصيات معنية بتنمية الجانب الفكري والثقافي للمكتبة من أمثال الدكتورصلاح الجوهرى ، وإلى فريق من العاملين فى المكتبة من مساعدى الدكتور صلا ح الجوهري .

من أول يوم فى المؤتمر لاحظت أن الباحثين والمعلّقين قد إنقسموا إلى ثلاث مجموعات: مجموعتين كبيرتين نسبيا ومتعاكستين .. إحداهما تقف مع مشروع نهضة إسلامية والثانية تحارب بقوّة لاستبعاد الدين من دائرة السياسة .. أما المجموعة الثالثة وهى أقل نسبيا فقد اتخذت موقفا وسطا يمكن أن تسميه توفيقيا بين الإتجاهات المتعاكسة .. ولعلّى أصنّف فى هذه المجموعة الدكتور حسن نافعة .. وقد بدا لى فى ذلك الوقت أنه صاحب منطق ، وأنه يستند إلى خبرات تستحق النظر، وأن ثقافته السياسية واسعة .. هذه الانطباع الأوليّ بدأ يتغير شيئًا ما ، عندما وضعت فكره ومواقفه تحت المجهر.

الأوراق التى قُدّمت فى المؤتمر كثيرة وغنية بالأفكار والمعلومات وتحتاج كل منها إلى وقفة للتأمل.. وقد ألحّ عليّ الأستاذ جمال سلطان الكاتب الصحفي ورئيس تحريرجريدة "المصريون" أن أبدأ فى التحليل والكتابة عن هذا المؤتمر قبل أن تهدأ حرارته وتتسرب الأفكار من الذاكرة .. وها أنا ذا أحاول العمل بالنصيحة .

من بين الكثير من الملاحظات التى لا زمتنى طول الوقت ونبّهتُ إليها بشدة أثناء المناقشات فى جلسات المؤتمر. بعض الإشارات الواشية عن إتجاهات أصحابها البعيدة عن المنطق العلمي والأكاديمي وربما القصور الفكري والإنحياز فى الأحكام ، كانت ترد وتتكرر فى سؤال يبدو على ظاهره البراءة ، ولكنه معبّأ بالإتهامات ... والسؤال هو: لماذا فشلت كل مشروعات التجديد والإصلاح فى المجتمعات الإسلامية ..؟! هل لأنها كانت مشرعات ضعيفة أو قاصرة..؟ أم لأن أصحابها كانوا ضعافا ولا قدرة لهم على التأثير فى مجتمعاتهم ..؟ أم لأن المجتمعات الإسلامية بطبعها غير قابلة للإصلاح..؟ أم لأن الإسلام نفسه معادِ وغير قابل للإصلاح..؟ ثم يأخذ المحاضر أو المعلّق يدور فى إستنتاجات يرتبها على هذه الإفتراضات .. ويضرب أمثلة من التاريخ القريب والبعيد على صحة إستنتاجاته .

الأسئلة كلها كانت فى ظاهرها مبرّرة ومعقولة .. ولكنها بدت فى نظرى قاصرة وغيرمستوفية للقسمة المنطقية السليمة .. بل غير مستوعبة لكل الإحتمالات المنطقية الواضحة لكل عقل لا يقنع بأنصاف الحقائق وإنما يريد أن يصل إلى الحقيقة الكاملة .. بشرط أن يكون لديه وعى كافِ بالتاريخ والسياسة .. من هذه الإحتمالات الأساسية فى نظرى (وهو ماعبرت عنه بقوة فى تعليقاتى): إستبداد النظم السياسية التى سادت فى المجتمعات العربية والمسلمة .. فمثل هذه النظم لا تعبأ بمشروعات إصلاح أو تجديد خصوصا ما كان منها ذا نزعة إسلامية .. ولا هى تعبأ بما يصلح شعوبها لأنها لم تأتِ بإرادة هذه الشعوب بل رغم إرادتها .. وأصحابها ينظرون إلى شعوبهم نظرة فوقية ويعتقدون أنهم أعرف بمصالح هذه الشعوب .. ومنطقهم هو منطق فرعون الذى قال لشعبه إنما (أريكم ما أرى) ..

الإستبداد السياسي كان فى نظرى دائما هو السبب الأول والعدو الرئيسى لمشروعات الإصلاح والتجديد التى ظهرت فى بلاد العرب والمسلمين على مرّ التاريخ ... أما الإسلام فهو برئ من هذه الإتهامات عند كل من يحاول فهم القرآن والسنة النبوية فهما حقيقيا مخلصا .. أليس رسول الله صلى الله عليه وسلم هو القائل: أن الله يبعث فى الأمة على رأس كل مائة عام من يجدد لها دينها .

على عزت بيجوفيتش -فوق أنه فيلسوف ومفكر إسلامى عظيم- هو أيضا مصلح إسلامي عظيم .. فقد ضمّن فكره النظرى التحليلي عن الإسلام فى كتابه (الإسلام بين الشرق والغرب) .. أما فكره التطبيقي التركيبي فقد تبلور فى مشرعه الإصلاحي الذى خصص له كتابا بعنوان: (الإعلان الإسلامي) .. يكشف لنا هذا الكتاب عن نظرات ثاقبة فى تشخيص علل المجتمعات المسلمة وأسرار تخلّفها .. ولديه إجابات منطقية ورائعة على كل الأسئلة التى تقدّم طرحها فى إطار مؤتمر الإسكندرية .. مما أشرت إليه آنفا .. الأمر إذن يحتاج إلى

وقفة متأنية مع على عزت بيجوفيتش فى كتابه الإعلان الإسلامي الذى يشتمل على مشروعه الإصلاحيّ :

يحدد بيجوفيتش في مقدمة كتابه الجمهور الذي يتوجه إليه بالخطاب، فيقرر أن الكتاب لا يخاطب غير المسلمين .. ولا يخاطب الذين يشككون فى تميّز الإسلام عن النظم أو المدارس الفكرية الأخرى .. إنما يخاطب المسلمين الذين يدركون حقيقة انتمائهم للإسلام .. والذين تحدثهم قلوبهم حديثاً صريحًا واضحًا عن طبيعة ولائهم الإسلامي .. ومهمة الكتاب بعد ذلك أنه يكشف لهم النتائج التي تترتب على هذا الموقف الذي التزموا به.

يشخّص بيجوفيتش ظاهرة التخلف فى الشعوب الإسلامية، ثم يتناول طبيعة المشروع الإسلامي أو "النظام الإسلامي" الذي يدعو إليه ويوضح أبعاده وعناصره، ثم ينتقل إلى معالجة المشكلات الأساسية التي تواجه هذا المشروع .. ويبدأ علي عزت بتوضيح إشكالية أساسية فى قلب المجتمعات المسلمة هى التى تعوق النهضة الإسلامية ، وهى التى تكرّس إستمرارية التخلف .. فهو يرى أن أى نهضه فى المجتمعات المسلمة تصطدم بنوعين متضادين من الناس ولكن بينهما عنصر مشترك وهما: المحافظون الجامدون على الأشكال القديمة، ودعاة الحداثة الذين يتطلعون إلى الأشكال الأجنبية فى التقدم ولا يرون سواها .. أما العنصر المشترك بينهما فهو النظرة القاصرة أحادية الجانب إلى الإسلام ، حيث يعتبرانه مجرد دين ، بمعنى أنه مقتصر على الحياة الروحية للفرد، ولا شأن له بتنظيم الحياة الدنيا.

ويلاحظ علي عزت أن دعاة الحداثة هم الذين يهيمنون على الحكومات وعلى التعليم والحياة العامة في البلاد المسلمة .. ويكشف لنا عن سمة تميزهم وتيسر لنا التعرف عليهم: " فهم يفخرون بما كان يجب أن يخجلوا منه، ويخجلون مما كان يجب أن يفخروا به .. لقد جلبوا إلى أوطانهم أفكاراً ثورية أجنبية وبرامج إصلاح ومذاهب إنقاذ موصوفة لعلاج كل المشكلات ، فإذا تأملناها مَلِيًّا نجد – لدهشتنا - نماذج لا يصدقها عقل في قصرنظرها وارتجالها..."

ويقارن علي عزت بين فلسفتي الإصلاح التي تبنتها اليابان من ناحية ، والتى تبنّاها كمال أتاتورك فى تركيا ، من ناحية أخرى.. ويكشف لنا عن الأسباب التي جعلت اليابان تنجح وتنطلق إلى قمة المجتمعات المتقدمة بينما انحطت تركيا إلى دولة متخلفة من دول العالم الثالث .. وينبه - في هذا المجال - إلى حقيقة ما تعانيه الشعوب اليوم بسيْرها على نهج النموذج التركي في الإصلاح، حيث ضاعت هويّتها وفقدت استقلالها وأصبحت عالة على الدعم السياسي والاقتصادي لدول الغرب.

وينتهي علي عزت إلى نظرية بالغة الأهمية حيث يرى أن جميع نجاحاتنا وإخفاقاتنا في الأخلاق والسياسة إنما هي مجرد انعكاس لفهمنا للإسلام وللكيفية التي طبقناه بها في الحياة ، وهو يلخّص رأيه فى هذا الموضوع هكذا:

"لقد كان ضعف تأثير الإسلام في الحياة العملية للمسلمين مصحوبًا دائماً بانحطاطهم وانحطاط مؤسساتهم السياسية والاجتماعية .. وتاريخ الإسلام كله منذ بدايته إلى يومنا هذا يؤكد هذا التطابق .. كأن هذا التطابق هو المصير الذي لا مناص منه للشعوب المسلمة .. وأحد القوانين الخاصة بالتاريخ الإسلامي نفسه".

ويرتبط بهذه النظرية تأكيد علي عزت أن القرآن "هو النّواة المركزية في الفكر النّهضويّ الإسلاميّ ، وفى الممارسة الإسلامية " ويرى أن إشكالية القرآن في المجتمعات المسلمة ترجع إلى أن هذه المجتمعات تتعلق به تعلقًا عاطفيًّا ولكنها لا تستطيع تطبيقه في حياتها .. وهنا يكمن الفصام بين الكلمة والفعل في العالم المسلم .. وينسب ظواهر الفساد والانحراف والسطحية والتنطع والتخلف جميعًا إلى هذا التناقض الأساسي بين حماسنا المشتعل تجاه القرآن وبين الإهمال الكامل لمبادئه في الممارسة العملية.

ويرى علي عزت أن أسوأ الملامح في أوضاع المسلمين العامة تتمثل في تلك الفجوة المأساوية بين النخبة المهيمنة وبين الشعوب في البلاد المسلمة .. وأن افتقاد التوافق بين عناصر الفكر والقيادة من ناحية وبين الجماهير من ناحية أخرى يخلّ بالشرط الأول لأي إنجاز عظيم .

ويرجع بيجوفيتش السلبية واللامبالاة لدى جماهير المسلمين إلى وجود هذه الفجوة .. ويرى أن أي برامج إصلاح لن يكتب لها النجاح أبدًا إذا كانت معادية للإسلام ، متجاهلة لمشاعر الجماهير المسلمة .. وستجد النخبة من دعاة الحداثة "أنهم يضربون برؤوسهم في صخرة الرفض العنيد واللامبالاة الدفينة من جانب الناس البسطاء الذين يشكلون الغالبية العظمى من الأمة".

ثم ينتقل بيجوفيتش إلى نقطة بالغة الأهمية فى مشروعه للنهضة الإسلامية مستندًا إلى نظرته العميقة فى تاريخ الإسلام والعالم الإسلامي ، فيقول: "المجتمع الإسلامي لا يُبنى ولا يتم إصلاحه بالقانون أو باسم القانون ولكن باسم (الله) وعن طريق تعليم الإنسان المسلم وتربيته".

ويلفت النظر إلى ظاهرة متفشية في المجتمعات المسلمة حيث تتكاثر القوانين وتتشعب وتتعقد؛ و هنا يحذرنا بأن هذه علامة أكيدة على وجود شيء بالغ الفساد في المجتمع .. ويرى في هذا دعوة للتوقف عن إصدار مزيد من القوانين والبدء بتعليم الناس وتربيتهم .. ذلك لأنه "عندما يتجاوز الفساد في بيئة ما حدًّا معيناً يصبح القانون عقيمًا".

من أبرز سمات النظام الإسلامي ومقوّماته -عند بيجوفيتش- أنه يقوم على ثلاثة عناصر لا يمكن الاستغناء عنها .. وهي: الاستقلال والحرية والديمقراطية .. والاستقلال الحقيقي -

عنده – ليس استقلالًا شكليًّا [هو استقلال روحي وفكري، وعلامة على أن شعبًا قد وجد هويته واكتشف قوته الذاتية.
وينبه علي عزت إلى حقيقة هامة وهي أنه كلما ابتعد نظام ما عن الإسلام كلما قل دعم الشعب له، ومن ثم يجد النظام نفسه مضطرًّا للبحث عن دعم خارجي .. فالتبعية التي تغرق فيها هذه النظم ليست إلا نتيجة مباشرة لتوجهاتها المعادية للإسلام .. وتتفاقم الأمور عندما تشعر هذه النظم بالمقاومة والعداء من جانب الشعب ، فتلجأ إلى العنف لتمرير سياستها بالقوة.
ويحذر علي عزت من الانزلاق نحو وهم "الغاية تبرر الوسيلة" فقد أدى هذا المبدأ إلى جرائم لا حصر لها .. ولا أحد يملك الحق في تشويه وجه الإسلام أو الإساءة إلى النضال الشريف باستعمال العنف الجامح .. فالغاية النبيلة لا يمكن الوصول إليها بوسائل دنيئة".
ويعارض معارضة شديدة الاستيلاء على السلطة بالقوة بحجة أن يقوم النظام الجديد بعد ذلك ببناء المؤسسات المناسبة .. وبتربية الشعب تربية دينية وأخلاقية وثقافية لبناء مجتمع إسلامي، فهو يرى أن هذا "مجرد غواية" وأن التاريخ لا يذكر لنا أي ثورة حقيقية جاءت عن طريق السلطة ولكن عن طريق التربية .. وكانت معنية في جوهرها بالدعوة الأخلاقية".
الترتيب الصحيح – عند علي عزت - أن يقوم المجتمع الإسلامي أولا ثم يأتي بعده النظام الإسلامي وليس العكس.
وفي مجال الوحدة الإسلامية يؤكد علي عزت أن الإسلام بطبيعته وروحه أقدر على توحيد الدولة الإسلامية برباط أقوى من روابط المصلحة التي توحّد الدول الأوروبية، فالإسلام لا يقيم الوحدة بين المسلمين على المصالح فقط [هو لا ينكر المصالح] ولكنه يجمع إليها عوامل الوحدة الروحية والمبادئ الأخلاقية والرسالة الإنسانية في إقامة العدل بين البشر .. وتلك هي مهمة (الأمة الإسلامية)، وليس معنى ذلك بالضرورة "الدولة الإسلامية العالمية الواحدة" كما فهم البعض خطأ أو كما أراد البعض أن يوهمنا بأن هذا هو ما يدعو إليه علي عزت في كتابه "الإعلان الإسلامي".
لقد عالج علي عزت هذه النقطة بوضوح تام في الفصل الثالث تحت عنوان: "الجامعة الإسلامية والحركة القومية" حيث تحدث عن "وحدة إسلامية كبرى" ويفسر لنا علي عزت طبيعة هذه الوحدة فيقول:

"... نحن نعتقد أنه لا يوجد ما هو أقرب إلى طبيعة الأمور وإلى الواقعية من مطلب اتحاد المسلمين بشتى أشكال الوحدة ليكونوا أقدر على معالجة مشكلاتهم المشتركة .. وأن يتجهوا بصورة تدريجية نحو بناء مؤسسات اقتصادية وثقافية وسياسية – تتجاوز القوميات- لكي يحققوا التنسيق والعمل المشترك في هذه المجالات الهامة".

ويرد علي عزت بقوة على أدعياء الواقعية من المسلمين الذين يرون استحالة تحقيق هذه الوحدة حيث يقول: "..الحق أن هذه الواقعية مصدرها الجبن والخضوع لسطوة الأقوياء في هذا العالم .. إن منطق هذه الواقعية يقول: ينبغي للسادة أن يظلّوا أسياداً وأن يبقى العبيد

عبيداً .. إن أدعياء الواقعية عندنا غير مؤهلين للإيمان أو العمل، وهذا هو سر واقعيتهم المهينة عندما يقولون إن وحدة المسلمين حلم لا يمكن تحقيقه فإنهم إنما يعبرون عن عجز يستشعرونه في أنفسهم.. فالاستحالة ليست في العالم الخارجي بل في صميم قلوبهم ...!
ومن المزاعم التي أثيرت حول فكر علي عزت أنه يرفض كل ما هو غير إسلامي في مجتمع المسلمين .. ولكن علي عزت – بعكس هذا الزعم - ينظر بإمعان إلى تجارب النظم الأخرى في العالم ويرى فيها أشياء نافعة وأخرى ضارة .. ولذلك فهو يفرق بين ما هو "غير إسلامي وما هو ضدّ إسلامي" .. وهو يرفض كل ما هو "ضد الإسلام" ولكنه لا ينكر الأول بل ينفتح عليه برحابة عقل وسعة صدر حيث يقول: "إذا تحررنا من هوس الحتمية التاريخية والتفتنا إلى وسطية الإسلام يمكننا دون تعصبات أن نكتشف ما تنطوي عليه هذه الأنظمة القائمة من جوانب الخير والشر لا باعتبارها رأسمالية أو اشتراكية، ولكن باعتبارها تجارب إنسانية معينة تمارسها المجتمعات المعاصرة". ويمضي لتعميق هذه الفكرة فيقول:

"إذا نحن وضعنا الشعارات والمصطلحات المضللة جانبًا وأخذنا في حسابنا فقط الحقائق التي نراها ماثلة أمامنا فيجب أن نعترف بالتطور الهائل في العالم الرأسمالي الذي تكشف عنه حيويته وقدرته على دفع عجلة العلم والاقتصاد إلى الأمام، إلى جانب أنه استطاع أن يتيح درجة أعلى من الحرية السياسية والأمن القانوني" ومن ناحية أخرى "لا يمكننا أن نتغاضى عن إنجازات النظام الاشتراكي خصوصاً في مجال تعبئة الموارد المادية وفي التعليم وفي القضاء على صور الفقر التقليدية .. وفي نفس الوقت "لا يسعنا أن نتغاضى عن جوانب مظلمة وغير مقبولة في التقدمات الرأسمالية والاشتراكية ولا أن نتجاهل الكوارث الكبرى التي تزلزل كلاً من النظامين من وقت لآخر". ويخلص علي عزت من هذا كله إلى أن الانفتاح العملي للإسلام في مجال حل المشكلات يجعله في وضع متميز يمكنه من دراسة التجارب الإيجابية والسلبية للآخرين دون تعصبات" .. وبالتالي الانتفاع بأفضل ما في هذين النظامين.

ويذكرنا علي عزت في النهاية بحقيقة هامة وهي أننا يجب ألا نستهين بقدر الأخوة بين المسلمين ولا بالعاطفة القوية التي تربطهم في جميع أنحاء الأرض بالقرآن، والتي تدل على أن العالم المسلم لم يمت وإنما لا يزال حياً ينبض بالحياة .. "فحيث توجد مثل هذه المشاعر لا يوجد موت".. إن العالم المسلم ليس صحراء مقفرة وإنما هو تربة عذراء في انتظار يد الزارع .. وبفضل هذه الحقائق تصبح مهمتنا واقعية قابلة للتحقيق .

إن مهمتنا تتمثل في تحويل هذه المشاعر الكامنة إلى قوى فعالة مؤثرة. فالإخلاص للقرآن لابد أن يتحول إلى تصميم على تطبيقه، وأن تتحول الجماعة الإسلامية القائمة على الوجدان إلى جماعة واعية منظمة .. وأن يتحول حب الإنسانية إلى أفكار واضحة لتصبح هي المحتوى الأخلاقي والاجتماعي للقوانين والمؤسسات".
وهكذا تتعاظم في فكر علي عزت مكانة القرآن في صميم النظام الإسلامي، كما تتعاظم قيم العدل والإنصاف والإنسانية .

